قيمة الطرح الابستمولوجي في البيولوجيا المعاصرة

أ. حمزة تاني

أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة–

ملخص:

نعالج في هذا المقال المشكلة الإبستمولوجية الجديدة في البيولوجيا، وهو الأمر الذي ظهر من خلال فرع الأخلاق الحياتية التي تعالج التقنيات البيولوجية المعاصرة، كالاستنساخ وأطفال الأنابيب والإجهاض الانتقائي والموت الرحيم، ثم محاولة توضيح التحدي المعرفي الجديد في البيولوجيا المعاصرة، وذلك من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي:

- تجاوز البيولوجيا للعوائق الإبستمولوجية الكلاسيكية.
- ظهور النزعة الآلية في البيولوجيا.
- ظهور التحدي الابستمولوجي الجديد في علم الأحياء.

Résumé :

Nous traitons dans cet article, le nouveau problème épistémologique dans la biologie. La bioéthique qui traite les techniques biologiques modernes: le clonage, la procréation assistée, l'avortement sélectif, et l'euthanasie, en montrant le nouveau défi épistémologique dans la biologie moderne. Et cela en se concentrant sur trois éléments:

- surmonter les obstacles épistémologiques classiques.
- l'émergence du mécanisme dans la biologie.
- l'émergence de nouveau défi épistémologique.

- We deal in this article, the new epistemological problem in biology. Bioethics that treats modern biological techniques: cloning, assisted reproduction, selective abortion and euthanasia, showing the new epistemological challenge in modern biology. And this by focusing on three elements:

  - Overcoming the traditional epistemological obstacles.

  - The emergence of the mechanism in biology.

  - The emergence of new epistemological challenge.

الكلمات المفتاحية:

المنهج التجريبي، الابستمولوجيا، البيولوجيا المعاصرة، التقنيات البيولوجية، الاستنساخ، الآلية، الأخلاق الحياتية.

مقدمة:

عرفت الدراسات العلمية المتعلقة بالبيولوجيا تأخرا كبيرا في وقت بلغت العلوم الفيزيوكيمياوية درجة كبيرة من التطور. والسبب في ذلك هو وجود جملة من العوائق المتعلقة بطبيعة مادة الدراسة، وهي المادة الحية التي لا يخاطر البيولوجي بإلحاق الضرر بها عند قيامه بالتجريب عليها، ولكن حتى بقتلها والقضاء عليها. بالإضافة إلى عوائق متصلة بصعوبة الملاحظة والافتراض في المادة الحية المعقدة والمتشابكة الأجهزة والوظائف.

وإذا كان من المعروف أن البيولوجيا بعد ذلك تجاوزت هذه العوائق وبلغت قمة تطورها، لدرجة أنه أصبح يطلق على القرن الواحد والعشرون صفة"قرن الثورة البيولوجية"، هل يمكن القول أن التساؤلات والإشكالات الإبستيمولوجية الكلاسيكية قد اختفت؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل برزت تساؤلات إبستيمولوجية أخرى؟ وما هو التحدي الجديد لإبستيمولوجيا البيولوجيا المعاصرة؟

تجاوز البيولوجيا للعوائق الإبستيمولوجية:

بعد مرحلة الركود التي مرت بها البيولوجيا، ظهرت العديد من المحاولات والدراسات التي تطورت البيولوجيا بفضلها تدريجيا، إذ أخذت دفعة قوية على أيدي علماء من أمثال الفيزيولوجي الفرنسي"كلود برنارد"، وأستاذه "فرانسوا ماجندي"، اللذين أسسا فرع الفيزيولوجيا التجريبية[1]، و"لويس باستور"، وعلماء أخرين.

ويعد كتاب"برنارد" المعنون ب"مدخل إلى دراسة الطب التجريبي" من أهم الكتب التي تطرقت إلى المشاكل التي أعاقت تطور البيولوجيا والطب كجانب تطبيقي لها، وكيفية تجاوزها. فالبحث العلمي في البيولوجيا والطب، بحسب كلود برنارد، لا يجب أن يخضع للصدفة، ولكن يجب أن يؤسس كعلم له معايير وأسس وخطوات ثابتة. وفي هذا الكتاب يؤكد أن الطب " يتجه نحو مساره النهائي... ليلبس شيئا فشيئا الصفة التأملية، ويدخل في منهج البحث العام للعلوم التجريبية"[2]، لذلك دافع عن ضرورة التطبيق الفعلي للمنهج التجريبي على المادة الحية، برغم التعقيد والصعوبة التي تتميز بها،[3] وهو ما يؤكده بقوله ما إن تستقر الملاحظة الطبية، تصبح كما في الفيزيولوجيا نقطة البداية للأفكار والفرضيات التي يتفحصها الطبيب المجرب فيما بعد من خلال ملاحظات جديدة مسلطة على مرضى، أو عن طريق تجارب مقامة على الحيوانات"[4].

كان هذا التطور كذلك بسبب إسهامات بعض الفيزيائيين والكيميائيين الذين انتقل اهتمامهم من دراسة المادة الجامدة إلى دراسة المادة الحية، من أمثال "أنطوان لوران لافوازييه" (1743- 1794)، الذي بالرغم من تخصصه في الكيمياء، إلا أنه ساهم في تطور علم الأحياء من خلال بحوثه التجريبية حول عملية التنفس. و انتقال اهتمام

العلماء من العلوم الفيزيوكيمياوية إلى البيولوجيا أدى إلى ظهور فرع أخر في البيولوجيا، وهو فرع" البيوكيمياء" الذي يعد ليبينغ Justus Von Liebingمن أهم مؤسسيه. وهذا العامل في التطور يعترف به برنارد بقوله:" إنه بفضل التطورات المعتبرة والإسعافات القوية للعلوم الفيزيوكيمياوية في دراسة ظواهر الحياة، سواءا في الحالة العادية أو في الحالة المرضية، حدثت تطورات مذهلة تتضاعف يوميا أكثر فأكثر."[5]

ويمكن القول أن هذه الانطلاقة تميزت بظهور عدة نظريات بيولوجية مثل نظرية التطور ل" تشارلز داروين"1809--1882، والتي سبقتها أبحاث عديدة من أبرزها تلك التي قام بها"شوفالييه لامارك"1744- 1829، Chevalier de Lamarck، ونظرية الخلايا مع"ماتياس جاكوب شليدن" M.J.Cheleiden، ونظرية الوراثة ل" جوهان غريغور مندل"1822– 1884.

ظهور النزعة الآلية في البيولوجيا:

تنامي هذا التوجه الوضعي في البيولوجيا أدى إلى التجاوز التدريجي للعوائق الإبستيمولوجية التي طرحت على المستوى المنهجي والتطبيقي. وأخذ البحث يتجه نحو نموذج التفسير الآلي. والأسباب التاريخية معروفة، وكانت تبدو أنذاك شرعية، غذتها فكرة التخلص من السيطرة الكنسية التي تم فرضها لقرون طويلة، إضافة إلى النزعة الإنسانية وفكرة الأنوار اللذين رسخا مبدأ أولوية تحسين حياة الإنسان بالمعرفة وضمان حرية الفرد.

وخلاصة القول أن هالة القداسة التي كانت محيطة بالمادة الحية، وخاصة الإنسان بدأت تتلاشى تدريجيا تحت تأثير فكرتين أساسيتين وهما:

– **الأولى**: وهي قناعة الكثير من العلماء والإبستيمولوجيين بضرورة دراسة المادة الحية، خاصة مع عصر التقدم والتحرر المعرفي الذي كان قد بدأ.

– **الثانية:** وهي أن هناك تماثلا بين العناصر الأولية المكونة لكل من المادة الحية والجامدة، مثل الأزوت، والكربون والأوكسجين والهيدروجين وغيرها من المواد، وهو ما يعني إمكانية التحكم في هذه المادة الحية في إطار قوانين علمية مصاغة صياغة كمية رياضية، وذلك من خلال فهم التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل عضوية الكائنات الحية.

إذاً النزعة الوضعية في البيولوجيا تطورت شيئا فشيئا، ووصلت إلى حد تبني النموذج الآلي الميكانيكي في البيولوجيا. بمعنى دراسة المادة الحية مثل المادة الجامدة وبتجاوز لكل العوائق المنهجية، والتحفظات والاعتبارات الأخلاقية والدينية.

هذا التصور الآلي للبيولوجيا وجد قاعدة أساسية صلبة، تمثلت في عدد من الفلسفات الحديثة والمعاصرة، فمثلا نجد أب الفلسفة الحديثة "رونيه ديكارت" يولي عناية فائقة بالنفس ويعتبرها الأساس في الإنسان، بينما يعتبر الجسم ذو طابع مادي لا يرقى إلى درجة تصدق عليه قوانين مضبوطة مثل تلك التي تسري على بقية الجمادات.

وفي السياق ذاته، يرى المفكر المغربي "سالم يفوت" أنه في إطار هذه الفكرة توالت الإنتاجات المعرفية، وكتاب "لاميتري"La Metterie، المعنون بالإنسان الآلة L'homme machine، يعكس إقصاء مبدأ الغائية كمبدأ رئيسي في دراسة الإنسان ككائن حي، وهو نوع من الميتافيزيقا الجديدة المحدودة بحدود النظرة المادية، وبذلك فإن فعل التفكير يرتد إلى فعل مادي، ذلك أن الإنسان هو مجرد حيوان أو مجموعة من النوابض يحرك بعضها البعض الأخر دون أن نتمكن من فهم أيهما الأسبق إلى الدفع والتحريك."[6]

ظهور التحدي الإبستيمولوجي الجديد في علم الأحياء:

إلى غاية هذه المرحلة أصبح الحديث عن العوائق الإبستيمولوجية التي ظهرت في البداية أمرا في غاية التجاهل لتطور البحوث والتقنيات البيولوجية، فلقد بلغ تطور البيولوجيا في القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين إلى حد ظهور مشروع التحكم في الجينوم البشري، والإستنساخ، وقضايا معقدة متعلقة بطرق الإنجاب المساعدة.

ومن هنا أصبحت إبستيمولوجيا البيولوجيا المعاصرة تهتم أكثر بالتساؤلات المتعلقة بالطابع الأخلاقي للممارسات البيولوجية، وبحدود البيولوجيا وبالمعايير الواجب اتخاذها كمرشد وقائد في عملية البحث والاكتشاف.

وهذا ما أتفق على تسميته بكلمة "البيوإتيقا"(Bioéthique)، وهي كلمة حديثة ظهرت في سنة 1970في الولايات المتحدة الأمريكية وتعبر عن تساؤلات وانتقادات للتطورات المتعلقة بالتقنيات البيوطبية (Biomédicales)[7]، وهذه التطورات التقنية للممارسات الطبية هي بالتأكيد محصلة الإكتشافات البيولوجية المتجددة وخاصة ميدان البيولوجيا الجزيئية.

على أن أخلاقيات الطب لم تولد من رحم أخلاقيات البيولوجيا بل كانت موجودة منذ القدم، أي منذ ما قدمه في القرن الخامس قبل الميلاد أبو قراط(Hippocrate) في هذا المجال، مثل وجوب توفر الثقة بين الطبيب والمريض، وخدمه المريض مهما كان أصله وعرقه وحفظ السر، وكذلك بعض المبادئ مثل: لا تجعل المريض مهموما، منع الإجهاض، والسماح بموت المريض"Euthanasie"، والعديد من المبادئ والقوانين الطبية التي ترسخت بمرور الوقت في جمعيات طبية وفي قانون أخلاقيات الطب. ولكن التجاوزات حصلت وخاصة تلك المتعلقة بالتجارب البيولوجية أو الطبية وطرحت أكثر من تساؤل أخلاقي، ولعل من أشنع هذه التجاوزات تواطؤ الأطباء النازيين مع السلطة خلال الحرب العالمية الثانية، و التي استدعت بشدة فكرة البيوإتيقا.[8]

إن الاكتشافات العلمية في البيولوجيا المعاصرة فتحت آفاقا واسعة أمام إيجاد علاجات للعديد من الأمراض والمشاكل الصحية وتحسين النسل، ولكن من ناحية أخرى استدعت العديد من التساؤلات والمراجعات لأنها أصبحت تمس بدرجة أولى صميم الإنسان مع كل ماله من وزن روحي ومعنوي وأخلاقي. وكانت هذه المراجعات من طرف متخصصين في البيولوجيا والطب والإبستيمولوجيين والفلاسفة، وكذلك من طرف علماء القانون والدين ومتخصصين في الإنسانيات، وخصت مواضيع مثل الاستنساخ والقتل الرحيم والتبرع بالأعضاء البشرية وزرع أعضاء الحيوانات للبشر، والإخصاب الصناعي والبنوك المنوية، وبنوك الأجنة، وأطفال الأنابيب، وتأجير الأرحام، واستغلال أفراد للتجريب عليهم رغما عن إرادتهم واستخدام الأسلحة البيولوجية والكيميائية في الإبادة الجماعية والمعارك، والعديد من المواضيع التي طرحتها البيولوجيا والتي قد تظهر خطورتها في الأهمية التي أعطيت لها سواء من طرف المتخصصين أو من طرف بعض الحكومات.

لقد تأسسست" اللجنة الإستشارية القومية لأخلاقيات البيولوجيا" وتم إنشائها بطلب من الرئيس الأمريكي"بيل كلينتون"وترأسها هارولد شابيرو(Harold Shapiro)، وهو أستاذ ورئيس جامعة"برينستون"، وكان الرئيس نفسه هو من طلب من اللجنة أن تعد تقرير مفصلا عن القضايا الأخلاقية والقانونية التي يمكن أن تثيرها عملية الاستنساخ وذلك بعد يوم واحد فقط من إعلان 23 فبراير 1997 والذي مفاده أن نعجة متطابقة وراثيا قد جاءت عن طريق الاستنساخ[9]، فمن الناحية الإبستيمولوجية يكون من الواجب طرح الأسئلة المتعلقة بأخلاقية الاستنساخ الذي يتم بين خلايا جسدية، وكذلك تقنية أطفال الأنابيب وولادة جنين من أم معلومة وأب مجهول الهوية من خلال اللجوء إلى بنك الحيوانات المنوية، وعمليات الإجهاض التي تحدث لأجنة تظهر عليهم البعض أو الكثير من التشوهات الخلقية من خلال ما توفره تقنية"الكشف ما قبل الولادة"، وتأجير الأرحام لنساء لا تقدرن على الإنجاب لأسباب مرضية، والموت الرحيم والعديد من المسائل الأخرى المتعلقة بالأسلحة البيولوجية والكيمياوية، إذ أن "حروب

الفيروسات والبكتيريا الموجهة للخصوم على شكل اتقائي ووراثي وعنصري لا تستبعد المغامرين عن خوضها، كما أن المعالجات الجينية المستقبلية بتوفير أدوية تتوافق مع مجين الفرد لازالت تحوم حولها كثير من الشكوك من أن تصبح تلك الأدوية أو حتى الأغذية المعدلة وراثيا موجهة وتصبح أدوات إبادة شاملة وأسلحة فتاكة تقتل المغفلين عن معرفة مدى تطورات وسائل الحرب البيولوجية المستقبلية وإستخداماتها."[10]

إذن حقل خصب من الدراسة النقدية يقع اليوم على كاهل الفلاسفة والإبستيمولوجيين يعلق عليه"دومينيك لوكور"بقوله: "لم تثر الفلسفة أبدا منذ نصف قرن من الزمان، مثلما تثير من اهتمام اليوم، فنحن نرى أطباء وحقوقيين يلتفون حولها لمحاولة توضيح المسائل المتعلقة بالأدبيات والأخلاقيات والسياسة التي طرحتها"الهندسة الوراثية "والفيزيائيون–الفلكيون والكيميائيون–البيولوجيون، بإعادة اكتشافهم لمشكلات تهم الأصل(أصل الكون، أصل الحياة)يدركون أصلها ومداها الفلسفيين..."[11].

ويجب القول أن المشكلات الأخلاقية التي تثيرها البيولوجيا اليوم لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تُقزم بالاعتماد فقط على آراء مختصين طبيين وبيولوجيين، قد يعوزهم المعنى الفلسفي لقيمة وكرامة الإنسان–الشخص الجدير بالاحترام، ذلك أن العلميين قد يعمدون إلى تسويغ تقنية بيولوجية أو طبية ما، فقط لأنها لا تشكل أي خطر طبي " موضوعي" على جسم الإنسان. على أن هذا لا يعني أن آراء المختصين من أطباء وبيولوجيين غير مهم بل رأيهم وخبرتهم أمر أساسي في دراسة المشكلات الأخلاقية التي تثيرها البيولوجيا دراسة فلسفية إبستيمولوجية قائمة على معرفة علمية دقيقة بالشروط والوسائل والتقنيات المطبقة، وبالإمكانيات الطبية التي يمكن أن تتحقق. وخلاصة فإن حساسية المشاكل المطروحة في البيولوجيا وموضوع الدراسة يحتمان على المهتمين اليوم بالأخلاق البيولوجية ضرورة امتلاك رصيد علمي وفلسفي يجعل منهم إبستيمولوجيين بامتياز.

إن الكثير من الأطر والمعايير أصبحت اليوم من دائرة اختصاص الفلسفة، كحقيقة الكائن الإنساني أو متى يكتسب الجنين صفة الإنسان– الشخص؟ إذ تثير البيولوجيا اليوم قضايا يتقاطع في إطارها البعد الاجتماعي والثقافي والسياسي وحتى الاقتصادي من حيث أن البيولوجيا أصبحت منبعا مدرا للمال، ولذلك فإن القراءة الإبستيمولوجية لها تستدعي سعة إطلاع على كل المجالات، لأن روادها ومختصوها سوف يقررون بشأن قيام أو عدم قيام إمكانيات بيولوجية وطبية.[12]

ولقد حان الوقت لتفرض فلسفة الأخلاق سلطانها ومنطقها على "أخلاقيات البيولوجيا والطب"، لأن محاولات التقليل من قيمة الدراسة والنقد الفلسفيين لا تتوقف في زمن طالت فيه النظرة المادية جميع الميادين حتى جسم الإنسان، أين أصبح مصطلح أخلاق أو روحانية وكرامة الإنسان مفرغ من المعنى.

وهنا يبرز التفكير الفلسفي العميق على أنه هو الوحيد القادر على تحديد النظرة إلى الإنسان الشخص، وإلى المسؤولية التي تتحملها كل الإنسانية تجاهه، أي اتجاه نفسه، لأن إفساد الفطرة السوية للإنسان يعني إيذائه بطريقة مباشرة، إيذاءاً يمس روحه وكيانه، وماذا يبقى من حديث عن الحضارة و التربية و التمدن و التواصل إذا ما فقد الإنسان (و الإنسانية) حقيقة ذاته؟.

و"لا بد من الاعتراف أيضا أن الجميع هنا أمام مأزق أخلاقي ناجم عن طبيعة وواقع طغيان اقتصاديات السوق و التجارة و جشع الرأسمال، والتفاوت بين المجتمعات من خلال منظوراتها القيمية والفلسفية ...، فمسائل مثل القرصنة البيولوجية، والمتاجرة غير المشروعة بالأجنة و الأعضاء البشرية والأنسجة والخلايا والعينات الوراثية، والمواد ذات الصلة بتقنيات الإخصاب، والاستنساخ وتجارب الأدوية على البشر من دون علمهم ليست مرهونة بأخلاقيات الصحة والتقانة والتجارة فقط، بل كثيرا ما تكون في تعارض

مع المنظومات القيمية و الأخلاقية للمجتمعات، وحتى مع قواعد اقتصاديات السوق نفسها."[13]

وإذا ما تمت مقارنة النتائج الكارثية للتقنيات التي طبقت فيها نظريات فيزيائية بتلك التي يمكن أن تحدثها تجاوزات التقنيات البيولوجية، فإن الأخطار ستكون أعمق لأن موضوع الدراسة هو الكائن الحي، وبالأساس الإنسان، بالإضافة إلى أن الخطر الذي تشكله تقنيات الفيزياء واضحة وجلية ولا يمكن الاختلاف في ضررها المباشر على حياة الإنسان، بينما الضرر الذي تشكله تجاوزات بعض التقنيات والإمكانيات البيولوجية على الحياة فإنها غير مباشرة، ويمكن أن تغطى بعدة مبررات، إنسانية بالدرجة الأولى، إذ أن شراء لقيحة من بنك الأجنة وزرعها في رحم امرأة مؤجرة لرحمها والحصول على ولد أمر قد يتم قبوله اجتماعيا وتسويغه تحت غطاء إنساني، وهو أنه لا يمكن منع أي زوجين من الحصول على ولد إذا رضيا بهذه التقنية، والأمثلة من هذا النوع كثيرة خاصة في مجال الإجهاض وتقنيات المعالجة الجنينية والتجريب على البشر والأجنة.

وأمام المخاطر الحقيقية التي تمثلها هذه التجاوزات تطرح الأسئلة التي تتعلق بما إذا كان من الواجب إيقاف بعض الأبحاث التي تتعلق بالجينوم البشري أو بأي موضوع أخر كالهندسة الوراثية وتقنيات الحمل المساعدة، خاصة وأن هذه التطبيقات تملك جانبا شريرا وأخر خيرا وذلك بحسب استعمال الإنسان لها.[14]

وقد يطرح سؤال أكثر واقعية:على من تقع مسؤولية التجاوزات في هذا المجال؟ وعلى من تقع مسؤولية نتائج التقنيات التي تهدد أخلاقية وكيان الإنسان؟ و"هل الباحث الذي يمارس البحث الأساسي لا يتحمل من جهته أي مسؤولية؟ يجيب عالم الأحياء العصبي (ألان بروكيانتس)، "أبدا"، كان يجيب بتشديده على الواجب الذي هو واجبه في أن يخبر الجمهور وصناع القرار حول الوعود والتهديدات التي يرى أنها مرتبطة بأبحاثه، إن الأمر يتعلق هنا بخلق شروط ممارسة الديمقراطية والعمل ألا تفرض مجموعات ضغط عسكرية، اقتصادية أو غيرها، قرارات متخذة في السر أو بالأحرى في جهل تام بالأمور،

إن تطوير ثقافة علمية أصبح أكثر فأكثر ضرورة ديمقراطية ينبغي على العلماء أنفسهم أن يشاركوا فيها."[15]

بمعنى أنه يتعين على العلماء أن يشرحوا مشاريعهم ونتائج بحوثهم العلمية لجمهور الناس، الإيجابية الباهرة والسلبية المخيفة منها، لكي لا يتم السقوط في خندق الاستبداد بمفهوم معاصر، باتخاذ قرار لجماعة محدودة(سياسية، عسكرية أو اقتصادية) في تطبيق تقنية وعلاج طبي بيولوجي على كل أفراد المجتمع عن طريق استعمال بعض وسائل الإعلام التي تقوم بالتشهير والتمويه والتجهيل.

وإيجابيات نشر الثقافة العلمية تظهر في وعي المجتمع بالتقدم الحاصل في البيولوجيا، من خلال القدرة على الفهم الموضوعي البعيد عن التهويل والتخويف من مخاطرها وسلبياتها أو الانبهار والاندماج في ركبها بدون التساؤل عن مخاطرها وانعكاساتها.

ومن هنا تكون المسؤولية مشتركة بين العلماء البيولوجيين والفلاسفة والإبستيمولوجيين، وبين كل أفراد المجتمع، الممثلين في البرلمانات وجمعيات المجتمع المدني، وفي المنتخبين السياسيين.

فالعلماء يشرحون مشاريعهم العلمية وكل الإمكانيات التي توفرها أي تقنية من التقنيات الطبية البيولوجية، وأما الفلاسفة فيوضحون بأبحاثهم الأخلاق النظرية التي يجب أن تبنى عليها الأبحاث العلمية والبيولوجية بصفة خاصة، ويعملون بذلك ألا تطغى النظرة المادية على موضوع روحي وأخلاقي في عمقه وماهيته (الإنسان)، وبدرجة أقل الكائنات الحية الأخرى، وأما المجتمع ككل فإن وعيه بالمشكلات وفهمه الموضوعي لها، هو أكبر شيء يمكن أن يخدم الموضوع، ويساهم في تكاثف الجهود نحو بحث علمي قائم على أسس أخلاقية نظرية.

كل هذه الظروف ساهمت في قيام حقل" البيوإتيقا Bioéthique " كحقل معرفي له مسوغاته من موضوع ومنهج وهدف يسعى لتحقيقه. هذا الحقل يتناول بالدراسة عدة تقنيات بيولوجية من وجهة نظر فلسفية أخلاقية من أهمها نذكر:

أ- الإستنساخ: يرتبط التحدي الإبستيمولوجي الجديد في علم الأحياء بعدة مواضيع من بينها الإستنساخ، الذي يهدف إلى إيجاد صورة طبق الأصل للفرد المستنسخ، ورغم الإيجابيات التي يتحدث عنها بعض البيولوجيين للإستنساخ عند تطبيقه على الحيوان والنبات، إلا أن يحمل عدة سلبيات في حالة إذا ما تم تطبيقه على الإنسان. وفي ذلك يرى الفيلسوف الأمريكي ذو الأصل الألماني"هانس يوناس H.jonas، من المعارضين لفكرة الاستنساخ البشري، خاصة في كتابه "مبدأ المسؤولية" المنشور سنة 1974، أين يعطي فيه نظرة فلسفية ترى بأن إنتاج فرد مستنسخ هو بمثابة إنتاج لمعاناة بشرية تسبب فيها الإنسان بطريقة مباشرة، لأن الفرد المستنسخ هو بمثابة توأم للفرد المستنسخ منه، وإذا كان التوأمان في الحالة الطبيعية يشتركان في الموروث الجيني وفي البيئة الرحمية التي نشآ فيها، فإن لهما الاختيار الكامل في تحديد خيارات حياتهما حسب البيئة التعليمية، الاجتماعية، الأخلاقية والثقافية الخاصة بكل فرد منهما،في حين أن الفرد المستنسخ هو حامل لموروث جيني يبدو إلى حد ما قد قطع حياة كاملة وأظهر ما يمكن لحامله أن يحدث له من أمراض و انتكاسات على كل المستويات(العضوية، والعقلية، والنفسية والاجتماعية).[16]

والفرد المستنسخ بهذا المعنى يفقد حتى الحق في الجهل (جهل الأحداث التي يحملها مستقبله)، لأنه في كثير من الأحيان ما نرغب في الحياة للتفاؤل الذي نحمله في أنفسنا من قدرة على تجاوز المكاره و الصعاب والأمراض، وكذا العيش بنجاح وصحة وعافية.

ب- تقنيات الحمل المساعدة، وبنوك الأجنة والحيوانات المنوية: وترتبط القضايا الأخلاقية التي أثارتها البيولوجيا المعاصرة كذلك، بتقنيات الحمل المساعدة،

والمتعلقة بأطفال الأنابيب والتلقيح الاصطناعي خارج الرحم، وبنوك الأجنة وبنوك الحيوانات المنوية.

وتطرح هذه القضايا حاليا مشاكل أخلاقية وإبستيمولوجية حادة، نظرا لأنها تختلف مثلا عن مشروع الجينوم البشري و الاستنساخ في أن هذين المشروعين لم يصل فيهما العلماء إلى الذروة، إذ مازال البحث يحتاج إلى عمل أكثر واكتشافات أخرى بينما تقنيات الحمل المساعدة(La Procréation assistée) تجرى اليوم بشكل عادي، والطلب يزداد عليها يوما بعد يوم، برغم ما تثيره في كثير من تفاصيلها من إحراج أخلاقي لكل إنسان.

ولقد اعتبرت طرق الحمل المساعدة لحل لمشكلة العقم التي يعاني منها الكثير من الأزواج، ويطلق عليها اسم طرق"الحمل المساعدة طبيا"(La procréation assisté).

وتتم هذه التقنية عن طريق عدة أشكال يتم تطبيقها من طرف الأطباء البيولوجيين.

أول هذه الأشكال يكون بتلقيح بويضة الزوجة خارج الرحم بمني الزوج "وهو ما يعرف بالإخصاب الاصطناعي في نطاق الزوجية-Insémination artificielle intra conjugale، بهدف إنجاح عملية التلقيح والإخصاب و تجاوز حالات العقم.[17]

وهذه العملية لا تثير إحراجا كبيرا على المستوى الأخلاقي، لأنها لا تطال الكرامة الإنسانية والاحترام الواجب حفظه للإنسان، طالما أن عملية الإخصاب المساعدة هذه تتم في إطار الزوجية، أي أن خلاصة كل ما يحصل يبقى في إطار الزوج بزوجته بمساعدة طبية.

من جانب أخر فإن هناك طريقة ثانية للتلقيح الاصطناعي، انتشرت حاليا بشكل واسع وخاصة في أمريكا وأوربا، تثير الكثير من الحرج والتساؤلات الأخلاقية، تحدث

بنفس الطريقة السابقة إلا أن الماء الذي تلقح به بويضة الزوجة ليس من زوجها بل من متبرع يتم اللجوء إليه لقلة الخصوبة لدى الزوج (ليس لديه حيوانات منوية Azospermia أو أن حيواناته المنوية قليلة الحركة أو مشوهة).[18]

وهذه التقنية تطرح عدة تساؤلات أخلاقية وإنسانية وكذلك تعقيدات على المستوى النفسي والاجتماعي بالنسبة للمولود، وأسئلة من نوع: من سيكون الأب الحقيقي للوليد الذي ولد بطريقة التبرع بالمني من الناحية القانونية، والشرعية وكذا الاجتماعية؟ وهل سيتم إخبار الولد بأنه ولد عن طريق إخصاب صناعي بمشاركة متبرع بالمني مجهول؟ أم أن التستر هو الحل الوحيد لحفظ هذا الطفل من الإضطربات النفسية والاجتماعية؟

تتعقد الإجابة هنا وتصعب، لأن الفكرة قد تكون مرفوضة بالأساس من ذوي الفطرة السليمة، لأن هذه التقنية بهذا المعنى تصبح عبارة عن تصنيع لوليد مجهول النسب مصيره الموت والمعاناة الروحية والنفسية.

وفي نفس الاتجاه يرى المفكر "محمد عزيز لحبابي في تدخله في الملتقى الأول حول الإستنساخ، المنعقد في المغرب والمعنون ب"من أجل الشخص:تأملات في الإنجاب الاصطناعي"، أنه في كثير من الأحيان ما يكون هناك تعارض بين الطبيعة وبين الحضارة الإنسانية والثقافات الوطنية، أي بين الجانب الطبيعي والمكتسب في الإنسان، وهنا يجد الإنسان نفسه حائرا أمام من يطيع الجانب الطبيعي(L'innée) فيه أم المكتسب (L'Acquis)؟

وفي محاولة الإجابة يرى"لحبابي"بأن الموافقة والموازنة بين الجانبين أمر ضروري، لأن كلا من الجانبين الفطري الطبيعي، والمكتسب الثقافي يكونان الشخص أو الإنسان، وهذه الضرورة تصبح ظاهرة إذا ما تأملنا مثال الوحدة الذي يتم في التوافق بين الجسد (le Corps) والأنا الشخصية (moi-personnalité).[19]

ولكن يجب التأكيد على أن هذا التوافق وإن كان مطلوبا فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون على حساب الجانب الطبيعي الفطري في الإنسان وهنا يعد الفيلسوف الفرنسي (جون جاك روسو) رائدا في مجال فكرة تغليب الجانب الفطري الطبيعي في الإنسان على الجانب الثقافي لأن الحضارة حسبه أفسدت الفرد بطريقة تدريجية مباشرة وغير مباشرة.

فالجانب الثقافي مرادف للجانب المعرفي المكتسب، وهذا المعرفي المكتسب قد يكون أداة لتطوير وترقية الإنسان، ولكن قد يكون أداة لهدمه وجعله في مرتبة الحيوان، ولعل فكرة الاعتماد على المتبرع بالمني لإحداث عملية إخصاب بين زوجين شرعيين قانونيين يمثل مثالا لاختلاط الأنساب وقضايا أخرى تشكل خطرا على إنسانية وأخلاقية الإنسان.

هذا وقضايا مشابهة متعلقة بإخصاب الزوجة بماء زوجها بعد موته Insémination poste-morte، وتأجير الأرحام كعملية منظمة في شكل شركات ووكالات"لتأجير الأرحام"، وحتى جمعيات إذ أسست في كاليفورنيا"جمعية الأمهات البديلات"، أين يكون التعامل تجاريا، فيتم دفع مبالغ معتبرة من الأزواج الراغبين في الحصول على طفل وخاصة زوجات الأثرياء منهم مقابل تأجير الرحم إلى غاية ولادة الطفل، وأصبحت هذه الظاهرة جد عادية لدرجة أن وكالات الأنباء والصحف والمجلات مثلا تؤكد على وجود أكثر من 15 مركز لاستئجار الأرحام في الولايات المتحدة الأمريكية، وتبلغ قيمة الإيجار نحو 17 ألف دولار، ويدون المبلغ في صحيفة التعاقد بين المركز وبين المرأة المؤجرة لرحمها. بل إن هناك مبالغ خيالية تصرف مقابل نشر إعلانات نساء يردن تأجير أرحامهن تحت عناوين من نوع "طلب سيدات للإيجار."[20].

على أن الهدف من بنوك الحيوانات المنوية، يكون "إما لبرامج حفظ الأشخاص لمنيهم الخاص، لغاية القيام بعمليات إخصاب اصطناعي بمني الزوج، أو لبرامج الإخصاب الاصطناعي والاستعانة بمني المتبرع... استعمال تقنيات(كالعلاج بالأشعة والعلاج

الكيميائي) ذات الآثار الجانبية الخطيرة. والعقم من آثارها المألوفة على المرضى لأنها تدمر خلاياهم الجنسية...ومعلوم أن بعض أنواع السرطان كسرطان هودكن Hodgken وسرطان الخصية عادة ما تصيب رجالا مازالوا في ريعان شبابهم".[21]

وهي دوافع ومبررات تقترب كثيرا من تلك التي أنشئت لأجلها بنوك الأجنة (اللاقحات)، فالتلقيح الاصطناعي للزوجة، أو التبرع بالمني لفائدة زوجين لا ينجبان، أو اللجوء إلى حفظ عينة من المني في بنك من بنوك الحيوانات المنوية، كلها ضرورات يرتكز عليها الأطباء البيولوجيون، أو حتى بعض أفراد المجتمع في الدفاع على ضرورة وجود بنوك من هذا النوع.

ورغم وجود دوافع قيام بنوك الحيوانات المنوية من الناحية العلمية والعملية، فإنه لا يجب الاكتفاء من الناحية الفلسفية بالمحددات العلمية، بل يجب تقييم الموضوع من كل النواحي. فالإنسان كائن حي يتكون من جسد ونفس أو روح، وبغض الطرف عن تفصيلات العلاقة الموجودة بينهما فإن روحانية الإنسان متحدة مع جسمانيته وعضويته كتعبير عن وحدة متكاملة ومتناسقة. والخوف كل الخوف من أن تهدر كرامة وقيمة هذه العضوية بتجاوزات تفقد الجانب النفسي والروحي في الإنسان وجوده وكيانه المتأصل.

وبما أننا في القرن الواحد والعشرين، فإنه لا يجب الحديث عن خوف محتمل، بل عن وقائع يجب تكممها والتصدي لانتشارها، خاصة وأن العالم اليوم يشهد موجة نحو اللادينية والإباحية وضمور المرجعيات الأخلاقية الكلاسيكية.

إذ أن " العلاقات الزوجية كانت شرطا ضروريا لإجراء عمليات الحمل المساعدة، إلا أن نسبة كبرى لا تشترط الزواج وإنما علاقة ثابتة بين رجل وامرأة، وفي دول مثل فلندا

يسمح لامرأة غير متزوجة بالحصول على هذه الخدمات، ومؤخرا تمت الموافقة كذلك لفئات أخرى مثل مثليي الجنس Lesbians"[22].

وإذا ما تم الاعتماد على" ما قالته (النيوزويك 1985/03/18)، فإن بنوك المني قد أدت إلى وجود ربع مليون طفل لا يعرف لهم أب أصلا..."[23] وعمل فضيع كهذا، سيكون وصمة عار في جبين كل إنسان لا يعارض هذا الإنجاز، لأنه يجب أن يضع كل المهتمين بهذا الموضوع في حساباتهم أن المولود الذي سيولد من هذه العملية هو كائن بشري"إنسان"له الحق في الانتساب إلى عائلة، وفي امتلاك كيان روحي ونفسي واجتماعي، وبذلك فإنه لا يجب أن تكون ظروف تكونه وولادته كتلك التي تولد بها الحيوانات المعدة للاستهلاك.

بالإضافة إلى أن انتشار بنوك الأجنة قد يهدم مؤسسة الأسرة مستقبلا، ويفتح الباب أمام مجتمع الشواذ، الذين يرغبون في الإنجاب من دون الارتباط بالجنس الأخر، أو يعيد فكرة جاهلية كانت تسمح بنكاح الاستبضاع من خلال شراء أجنة لأبوين يحملان صفات وراثية مرغوبة (الذكاء، القوة، الشجاعة والشهامة...)[24] أو حدوث خطر فساد وضياع الأنساب" في العلاقات بين البشر، فإذا كان هناك أكثر من 200 مليون حيوان منوي في المرة الواحدة، في حين أن التلقيح لا يحتاج إلا لحيوان منوي واحد، فإن معنى ذلك أنه يمكن لشخص واحد أن يتبرع بالسائل المنوي لبنك من البنوك، فيستخدم لتلقيح عشرات النساء دون علمه..."[25].

ولا يقف الأمر فقط عند الإستنساخ وبنوك الأجنة والحيوانات المنوية وطرق الحمل المساعدة طبيا، بل يتعداه إلى قضايا شائكة تتعلق بالإجهاض الإنتقائي، الذي يجعل من ولادة طفل مصاب بمرض المنغوليا Trésomie21خطأً طبيا. وقضية الموت الرحيم، وعدة قضايا وتقنيات بيولوجية أخرى

وأمام هذه التجاوزات البيوتكنولوجية الخطيرة، تظهر قيمة النظرة الأخلاقية التي تسعى إلى تكميم وتقنين التقنيات البيولوجية التي تهدد الإنسان في كيانه وطبيعته

وختاما فإن التحليلات الإبستيمولوجية المتعلقة بإفرازات البيولوجيا المعاصرة تفيد بأن البيولوجيا اليوم تحتاج إلى تدخل كل الإبستيمولوجيين والفلاسفة وإلى تبصر عميق من العلماء البيولوجيين.

لقد بلغ علم الحياة منعرجا خطيرا، استدعى الاهتمام والتبصر ليس فقط من المتخصصين ولكن من كل مثقفي العالم، وذلك أولا، بسبب الالتقاء الذي حصل بين الاكتشافات الكثيرة والمتوالية في البيولوجيا، وبين طغيان النظرة المادية المتعلقة بالجانب الاقتصادي والتجاري التي تظهر مثلا في بيع وتصنيع الأدوية والاتجار بالأجنة وعمليات الإجهاض الانتقائي والعديد من العمليات الأخرى.

وثانيا، بسبب تقبل بعض أفراد المجتمعات تدريجيا لبعض الممارسات والتقنيات البيولوجية، خاصة تلك المتعلقة بشراء الأجنة وتأجير الأرحام وبنوك الأجنة والحيوانات المنوية، تحت غطاء حرية الاختيار والتصرف، وبتأثير من بعض الدوائر والأوساط ووسائل الإعلام التي تُشهر وتروج لهذه التقنيات البيولوجية.

خاتمة:

وخلاصة فإننا توصلنا في هذا المقال إلى أن:

– إبستيمولوجيا علم الأحياء المعاصرة يجب أن تهتم بجانب خصب ومهم وهو جانب المسائل الأخلاقية التي تطرحها التقنيات البيولوجية، أو ما يعرف بـ "أخلاقيات البيولوجيا"، والتي تعمل على دراسة نتائج البيولوجيا دراسة نقدية بهدف ردع الجانب اللاأخلاقي فيها، وإزالة عملية الشيطنة التي تحدث بتعبير بعض الدارسين، والتي يساهم فيها أناس

علميون وغير علميين لغرض تجاري بحت أو لغرض علمي لا يراعي كلية خصوصية المادة المدروسة.

– بالإضافة إلى أنه يجب إحياء النزعة الفلسفية، للتذكير بقيمة الإنسان الأخلاقية والإنسانية، الذي تلاشت قداسته وسط مقتنيات الحضارة المادية ومنتجات الآلة وتتلاشى اليوم أكثر باعتباره مادة جامدة في البحث والتطبيق البيولوجيين.

– وبذلك، فلا يجب دعم المعرفة التي تهدم قيمة الإنسان وتجعله "يسير إلى الهاوية" بتعبير إدغار موران، بل يجب إحياء مفاهيم وتصورات أساسية في الفلسفة الأخلاقية متعلقة بالإنسان. فالعلم المعاصر بصفة عامة محتاج إلى صوت العقل والفلسفة، وليس إلى الإيديولوجيا والإشهار المضلل.

– معايير الاهتمام بمجال معرفي دون أخر كثيرا ما ترتبط بتوجهات اقتصادية وتجارية وبمصالح السباق نحو التفوق علميا وعسكريا، ففي وقت مضى شكلت العلوم الفيزيائية اهتمام الحكومات والعلماء، ثم انتقل الاهتمام إلى البيولوجيا. ورغم أن كلا من المجالين قد طرحا تجاوزات أضرت بالإنسان . بدون تنكر للإيجابيات المحققة .، فإن تجاوزات البيولوجيا أعمق وأخطر من تلك التجاوزات التي أثارتها العلوم الفيزيائية لأنها تمس مباشرة بجوهر وكيان الإنسان.

– الدراسة التحليلية لبعض إفرازات البيولوجيا المعاصرة تُظهر بأنه لا يمكن تقديم حلول نهائية بشأن مسائل معقدة مثل: اكتشاف الجينوم البشري وتقنيات الحمل المساعدة والتقنيات المتعلقة ببنوك الأجنة وبنوك الحيوانات المنوية، والموت الرحيم والتجارب على البشر، ولكن يحتاج الأمر إلى تأسيس أخلاق نظرية للبيولوجيا المعاصرة تشكل قاعدة أساسية للقوانين والمعاهدات الدولية التي يجب أن تصاغ بكل مسؤولية وأن تتسم بصفة الإلزام والردع للمخالفين، يتولاها علماء وفلاسفة وإبستيمولوجيون يساهمون في تنوير الرأي العام بصفة دورية.

الهوامش:

(1)- Voir, pierre Baconnier, Histoire de sciences et élément d'épistémologie, Faculté de médecine de Gronoble 2007-2008, p06

(2)- Voir, Claude Bernard, Introduction à l'étude de la médecine expérimentale libraires de l'académie impériel, 1865 , pp25-26.

(3)- Ibid, p22.

(4)- Ibid, p366.

(5)- Ibid, p06.

(6)– سالم يفوت، إبستيمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال، الدار البيضاء،المغرب، ط2، 2008، ص73.

(7)- Voir,Dictionnaire d'éthique et de philosophie, sous la direction de Monique Canto-spenber, PUF, 1ère édit, 1996, p156.

(8)- Ibid, p157.

(9)– أنظر، ريتشارد ليونتين، حلم الجينوم وأوهام أخرى، تر/أحمد مستجير، فاطمة نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص ص254 ـ 253.

(10)– عبد الكاظم العبودي، أخلاقيات البحث العلمي(البيولوجيا وأسلحة الدمار الشامل نموذجين)، مرجع سابق، ص112.

(11)– دومينيك لوكور، فيما تفيد الفلسفة إذن؟، تر محمد هشام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، د.ط،2001، ص09.

(12)- Voir, Gilbert Hottois, Essais de philosophie bioéthique et biopolitique, librairie philosophique J.vrin, Paris , 1999, p23.

(13)– عبد الكاظم العبودي، أخلاقيات البحث العلمي، مرجع سابق، ص111.

(14)– انظر المرجع السابق، ص167.

(15)– المرجع السابق، ص166.

(16)– أنظر: عمر بوفتاس، البيوإتيقا، مرجع سابق، ص ص323322.

(17)– أنظر، المرجع نفسه، ص224.

(18)– أنظر،محمد علي البار، (القضايا الأخلاقية الناتجة عن الإنجاب)،ملتقى القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الدورة01، أكادير، نوفمبر1986، ص69.

(19)- Mohamed Aziz Lahbabi, Pour la personne :Réflexions sur la fécondation artificielle,

المرجع نفسه، ص ص59. 60

(20)– أنظر، كارم السيد غنيم، الإستنساخ والإنجاب، مرجع سابق، ص،ص 247246.

(21)– أنظر: د.عمر بوفتاس، البيوإتيقا، مرجع سابق، ص228227.

(22)– أنظر: عبد الكاظم العبودي، أخلاقيات البحث العلمي، مرجع سابق، ص135.

(23)– محمد علي البار، القضايا الأخلاقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب، مرجع سابق، ص92.

(24)– المرجع نفسه، ص92.

(25)– ناهدة البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، علم المعرفة، د.ط1993، الكويت، ص151.

قائمة المراجع:

أولا: باللغة العربية:

1- دومينيك لوكور، فيم تفيد الفلسفة إذن؟، تر:محمد هشام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب،د. ط،2001.

2- ريتشارد ليونتين، حلم الجينوم و أوهام أخرى، تر:أحمد مستجير،فاطمة نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

3- سالم يفوت، ابستيمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب،ط2، 2008.

4- عمر بوفتاس، البيوإتيقا، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 2011.

5- كارم السيد غنيم، الاستنساخ و الإنجاب، دار الفكر العربي، مدينة نصر،مصر، ط1، 1998.

6- ناهدة البقصمي، الهندسة الوراثية و الأخلاق، علم المعرفة، الكويت، د.ط،1993.

7- ملتقى القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب، الدورة 01 أكادير، نوفمبر، مطبوعة أكاديمية المملكة العربية، 1986.

8- عبد الكاظم العبودي، أخلاقيات البحث العلمي (البيولوجيا و أسلحة الدمار الشامل نموذجين)، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة وهران، السنة الجامعية2009_2010.

ثانيا: باللغة الفرنسية:

1-Claude Bernard, Introduction à la médecine expérimentale, libraires de l'académie impériel, 1865.

2-Gilbert Hottoi, Essai de philosophie bioéthique et biopolitique, librairie philosophique J.Vrin, Paris,1999.

3-Pierre Baconnier, Histoire des sciences et éléments d'épistémologie, faculté de médecine de Gronoble, 2007/2008.

القواميس:

1-Dictionnaire d'étique et de Philosophie, Sous la direction de Monique Canto-spenber, PUF, 1ère édit, 1996.